فلسفة الموت والحياة

في فكر الراغب الأصفهاني

سعيد امختاري

الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فلسفة الموت والحياة
في فكر الراغب الأصفهاني

بقلم: امختاري سعيد

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين

منذ قديم الزمان حار الإنسان بعقله في قضية الحياة والموت، فأعيته الأفكار والفلسفات ولما يجد لها حلا يروي ظمأه ويشفي غليله، فكلما ازداد هذا الإنسان تمعنا في الفلسفات الوجودية، إلا وازدادت لديه الحيرة، في أصول هذه الحياة وما بعدها، ولم ينج من هذه المشكلة إلا من ألقى بنفسه في أحضان الإيمان بالله عز وجل، وانبرى يتلو كتابه الكريم ليجد فيه الجواب الكافي والدواء الشافي، الذي يعرف الإنسان بنفسه وبوجوده، والغرض من وجوده، ومصيره في النهاية، إنها الراحة كل الراحة والسعادة كل السعادة يجدها المؤمن في القرآن الكريم.

لقد أدت الحيرة بكثير ممن أخطأوا المنهج السليم في فهم الحياة والموت، حتى نطقوا بكلمات ظنوها فلسفة، وهي في حقيقة أمرها إعلان واضح عن الإفلاس الحتمي للمنهج الذي سلكوه، فتجد الواحد منهم يقول منذ القديم:

خذ من الدنيا بحظ قبل أن تنقل عنها

فهي دار لست تلقى بعدها أطيب منها

وقول الآخر:

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت

وقد أبصرت قدامي طريقا فمشيت

وسأبقى ماشيا إن شئت هذا أم أبيت

كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟

لست أدري ([1])

وأي حرمان هذا الذي يجعل الإنسان بما أوتي من العقل والفهم لا يدري من أين أتى ولا أين يتجه؟

ثم هناك مشكلة أخرى هي مشكلة الموت والفناء؛ فمن الناس من لا يرى بعد الموت شيئا يذكر، وإنما هو النهاية الحتمية الأخيرة ومنهم من يخاف هذا الموت ويروعه أمره ويتمنى لو لم يكن الموت أو لم يكن هو، لكن العالم المتبصر، الذي فتح الله له أبواب الفهم في القرآن يدرك حقيقة الموت وما بعده، وهذا حال عالمنا الإمام الراغب الأصفهاني رحمه الله صاحب التصانيف المفيدة، وهذه نظرته إلى الحياة والموت.

ماهية الحياة وأنواعها.

يقول الراغب الأصفهاني: «**الحياة تستعمل على أوجه:**

الأول: للقوة النامية الموجودة في النبات والحيوان، ومنه قيل: نبات حي، قال عز وجل: ﴿ **ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ** ﴾ الحديد: ١٧. ([2])

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الثانية: للقوة الحساسة وبها يسمى الحيوان حيوانا، قال عز وجل: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ ﴾ المرسلات : ٢٥–٢٦([3])

الثالثة للقوة العاملة العاقلة كقوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ الأنعام: ١٢٢.

الرابعة: عبارة عن ارتفاع الغم وبهذا النظر قال الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء.

الخامسة: الحياة الأخروية الأبدية وذلك يتوصل إليه بالحياة التي هي العقل والعلم، قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ **الأنفال: ٢٤، وقوله** ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ ﴾ الفجر: ٢٤، **يعني بها الحياة الأخروية.**

السادسة: الحياة التي يوصف بها الباري، فإنه إذا قيل فيه تعالى: «هو حي»، فمعناه لا يصح عليه الموت، وليس ذلك إلا لله عز وجل... ».([4]).

بهذه الطريقة المميزة، التي انطلق صاحبها من القرآن الكريم ميز الراغب الأصفهاني بين أنواع الحياة، مما يعني مباشرة التمييز بين أنواع الأحياء، فليست الحياة شيئا واحدا تشترك فيه جميع المخلوقات وجميع الناس بل تختلف ابتداء من القوة النامية في الحيوانات والنباتات، إلى الحياة الأخروية الأبدية، بالنسبة للمخلوقات، وبهذا يتفاضل الناس، فلا يمكن أن يستوي شخصان أحدهما لا زال على النوع الأول من الحياة والثاني تجاوزها إلى حياة العقل والعلم والمعرفة، التي جعلها طريقا إلى الحياة الأخروية الأبدية السعيدة.

يتبين لنا هذا الفرق واضحا حينما نجد الراغب يميز بين أنواع الموت بحسب أنواع الحياة التي ذكرها سابق.

ماهية الموت وأنواعه:

يقول الراغب: « **أنواع الموت بحسب أنواع الحياة** »([5])، يذكر الراغب هذه الأنواع ويستشهد أحيانا لكل نوع بأكثر من آية، اخترت في هذا الموضوع آية أو آيتين.

الأول: ما هو بإزاء القوة النامية الموجودة في الإنسان والحيوانات والنبات، نحو قوله تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ **الحديد: ١٧.**

الثاني: زوال القوة الحاسة، قال تعالى: ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾ مريم: ٢٣، وقوله تعالى: ﴿ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ ﴾ مريم: ٦٦.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الثالث: زوال القوة العاقلة، وهي الجهالة، نحو قوله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ الأنعام: ١٢٢، **وإياه قصد بقوله:** ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ﴾ النمل: ٨٠

الرابع: الحزن المكدر للحياة، وإياه قصد بقوله: ﴿ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ إبراهيم: ١٧.([6])

الخامس: المنام، فقيل النوم موت خفيف، والموت نوم ثقيل وعلى هذا النحو سماها الله تعالى توفيا فقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ﴾ الأنعام: ٦٠ ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ الزمر: ٤٢([7]).

وأخير يعود الراغب الأصفهاني ليؤكد النوع الأول من الموت الذي تشترك فيه كل المخلوقات فقال: **وقوله:** ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ **العنكبوت: ٥٧، فعبارة عن زوال القوة الحيوانية وإبانة الروح عن الجسد وقوله:** ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ الزمر: ٣٠ ، **فقد قيل معناه ستموت تنبيها أنه لا بد لأحد من الموت، كما قيل « والموت حتم في رقاب العباد »، وقيل بل الميت هنا ليس بإشارة إلى إبانة الروح عن الجسد بل هو إشارة إلى ما يعتري الإنسان في كل حال من التحلل والنقص، فإن البشر ما دام في الدنيا يموت جزءا فجزءا...**([8]).

إن هذه المقابلة الرائعة التي يعقدها الراغب بين أنواع الحياة وأنواع الموت التي تقابلها تجعلنا نستنتج أن الإنسان يختلف عن الآخر بحسب نوع الحياة التي يحياها؛ فالأفضل حياة من استكمل أنواعها، إذ لا يمكن أن يستوي من لم يتعد في حياته القوة النامية التي يشاركه فيها الحيوان والنبات، ومن تجاوزها نحو الحياة العلمية العقلية التي تؤدي به إلى حياة الراحة والطمأنينة والسلامة من الهموم المكدرة، مما يجعله يتشوف نحو ما هو أعظم منها وهي الحياة الأحروي الأكثر سعادة وهناء على الإطلاق لما فيها من دخول الجنة ثم رؤية الله جل جلاله.

ويظهر لنا خلاف ما تقدم حينما نرى الراغب يتحدث عن أنواع الموت التي لا يراها إلا العاقل، فكم من امرئ يرى نفسه نفسه حيا وهو عند الناظرين غليه ميت، إذ الموت -كما نتبينه من تفصيل الراغب- موتان: مادي؛ وهو زوال القوة الحيوانية، وإبانة الروح عن الجسد، ومعنوي؛ ومنه زوال القوة القوة العاقلة وحلول الجهالة، إذ هو واضح أن الجهل موت، مما يعني أن الجاهل ميت نظارا لما استشهد به الراغب من الآيات ثم ما أثر من الحكم والأقوال التي يصف فيها الحكماء الجاهل بالموت كما قال أحدهم:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله فأجسامهم قبل القبور قبـور

وإن امرءا لم يحي بالعلم ميـــت فليس له حتى النشور نشور

ثم تتابع الهموم والأحزان المكدرة للحياة، التي تجعل الإنسان لا يشعر أنه حي، وقد تؤدي به هذه الهموم والأحزان في حالة من ضعف النفس وقلة الإيمان إلى تمني الموت وتفضيله على حياة غير مريحة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثم إنه من حكمة الله تعالى أن جعل في النوم ما يشبه الموت تماما، حتى يألف الإنسان الموت الحقيقي ويستعد له بالإيمان والعمل الصالح ، لقول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ الزمر: ٤٢.

أسباب الخوف من الموت:

بعد أن عرفنا الراغب أن الموت ملازم للإنسان في شتى مراحل حياته، ولو حتى في تناقص الإنسان شيئا فشيئا، مع تقدم السن وحلول الأسقام والضعف، ووهن العظم...، نجد أن كثيرا من الناس يغتمون ويحزنون لهذا الموت الذي مهما فر منه الإنسان فإنه ملاقيه، وذلك راجع في العموم إلى ما يلي:

قال الراغب: « **وأما سبب الاغتمام للموت فلا ينفك عن أربعة أوجه: إما لفوت شهوات بطنه وفرجه، وإما على ما يخلفه من ماله، وإما على جهله بمآله، وإما خوفا لما قدمه من عصيانه** »([9]). ثم مضى يبين كيفية التخلص من هذه الأسباب الأربعة التي تجعل الإنسان يغتم للموت ويحمل همه في قلبه طول حياته، بل من الناس من تتحول به كثرة الاغتمام للموت إلى موت آخر بحسب رأي الراغب الأصفهاني في النوع الرابع من أنواع الموت الذي ذكرناه سابقا.

أحوال الناس مع الموت أمام هذه الأسباب:

قال الراغب: « **الناس في ذلك على ثلاثة أضرب:**

فالأول: حكيم يعلم أن الحياة تسترقه، والموت يعتقه... .

والثاني: رجل أنس بهذا العالم فألفه... .

والثالث: رجل أعمى عين البصيرة متلطخ السريرة بما ارتكب من أنواع الجريرة، رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها، ويئس من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور، فإذا خرج منه إلى دار الخلود أضر به ذلك... »([10])

ويذكر هذه الأسباب مرة أخرى في كتابه تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين فيقول: « **ولأجل أن الموت الحيواني انتقال من منزل أدنى إلى منزل أعلى أحبه من وثق بما له عند الله، ولم يكرهه إلا أحد رجلين**

- أحدهما من لا يؤمن بالآخرة وعنده أن لا حياة ولا نعيم إلا في الدنيا....

- والثاني يؤمن به ولكن يخاف ذنبه، فأما من لم يكن كذلك فإنه يحبه ويتمناه كما أحبه الصالحون وتمنوه.. »([11]).

الموت كمال للإنسان وسبب لعادته الكبرى.

يرى الراغب أن الموت الذي يهابه الناس ويخافون منه، سبب في كمال الإنسان، فمن كره الموت أوخافه فقد كره كماله ، وهذا عين الخسران، يقول في ذلك: « **والموت سبب كمال الإنسان، ومن رغب**

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عن كماله فهو من الذين خسروا أنفسهم » ([12]). ويقول في موضع آخر: « **من شرط كمال الإنسان مفارقة هيكله ولولا هذا الموت لم يكمل الإنسان، فالموت إذن ضروري في كمال الإنسان** »([13]). وهذا يجعلنا نعود إلى النقطة الأولى التي ينطلق منها الراغب الأصفهاني في تصوره للإنسان، فهو لا يرى الإنسان مجرد مخلوق، فقد قال في مقدمة كتابه تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين: « **ولم أعن بالإنسان كل حيوان منتصب القامة، عريض الظفر، أملس البشرة، ضاحك الوجه، ممن ينطقون ولكن عن الهوى...** »([14]). فالإنسانية عند الراغب غير الإنسان الذي هو مجرد مخلوق لله، بل هي تكتسب اكتسابا حتى تكتمل، لذلك يقسم الإنسان إلى قسمين: **« عام وخاص؛ فالعام يقال لكل منتصب القامة مختص بقوة الفكر، واستفادة العلم، والخاص أن يقال لمن عرف الحق فاعتقده والخير فعمله بوسعه، وهذا معنى يتفاضل فيه الناس ويتفاوتون فيه تفاوتا بعيدا، وبحسب تحصيله تستحق الإنسانية، وهي تعاطي الفعل المختص بالإنسان فيقال: فلان أكثر إنسانية...** »([15]). وللراغب كلام طويل في معنى الإنسانية يحتاج إلى بحث مستقل، غير أننا نرى أنه يرتقي بالإنسانية نحو الكمال ابتداء من السعي نحو معرفة الحق والعمل به في الحياة إلى الموت على ذلك النهج إلى أن تفارق الروح جسد الإنسان وهذا من كمال أنسانيته، وقد يكون السبب في هذا التصور أن أصل الإنسان كان في الجنة، فبل نزوله إلى الأرض، فالجنة لا مجال فيها للنقص، ولا العصيان، والدنيا دار تعب ونصب، ومعصية، وتغير مستمر، فلا يمكن لمن تجوز عليه هذه التغيرات أن يشعر بالكمال إلا بالعودة إلى أصله، الذي هو الجنة، وهذا ما صرح به الراغب في كتابه إذ يقول: « **فالموت هو باب من أبواب الجنة منه يتوصل إليها، ولو لم يكن موت لم تكن الجنة** »([16]).وقوله أيضا: « **اعلم أن الموت المتعارف الذي هو مفارقة الروح للبدن هو أحد الأسباب الموصلة للإنسان إلى النعيم الأبدي، وهو انتقال من دار إلى دار** »([17]). وكذلك فالموت انتقال بالإنسان من منزل إلى منزل أعلى لذلك أحبه من وثق بمآله عند الله([18]). ويمضي الراغب الأصفهاني يضفي أوصاف الجمالية على الموت قائلا: « **لأنه لما كنت الحياة الأخروية نعمة لا وصول إليها إلا بالموت فالموت نعمة لأن السبب الذي يتوصل به إلى النعمة نعمة، ولكون الموت ذريعة إلى السعادة الكبرى لم يكن الأنبياء والحكماء يخافونه** »([19]).

أي أوصاف هذه التي خص بها الراغب الموت الذي يفزع منه الكثير من الناس؟ إنه حقا وصف لا نملك أمامه إلا الإعجاب، فالموت كمال الإنسانية، والموت انتقال من منزل أدنى إلى منزل أعلى، والموت باب من أبواب الجنة التي لا يدخلها الداخل إلا من خلاله، والموت نعمة كبرى لأنه يوصل إلى النعمة الكبرى، والموت سعادة لأنه يوصل إلى السعادة الأبدية التي قال فيها: « **فالإنسان وإن اجتهد ما اجتهد أن يطلع على تلك السعادة فلا سبيل له إليها إلاّ على أحد وجهين:أحدهما أن يفارق هذا الهيكل، ويخلّف وراءَه هذا المنزل فيطلع على ذلك** ... »[20] والموت باب الدخول على الله تعالى الذي يحب لقاء عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فأي سفر أعظم من سفر يجمع الحبيب بحبيبه، وأي حبيب أعظم من الله تعالى، وأن الإنسان في الدنيا حينما يسافر وهو يعلم أنه سيلاقي محبوبا، فإنه ينشط لذلك السفر وينتظره بشغف، ويتحمل مشاقه ومتاعبه كأنها لم تكن، عكس الذي يسافر إلى مجهول لا يعرف عوافبه، أو من تيقن أنه مسافر إلى مكروه، فإنه يستثقل ذلك السفر ويقض مضجعه حتى قبل حلول أوانه، والمؤمن الصالح يحب لقاء الله فيحب الله لقاءه فينتظر السفر إليه براحة وطمأنينة، وهنا يستشهد الراغب بالحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: « **من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**»([21])، وبقوله تعالى: ﴿ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ **الجمعة:** ٦

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تنبيهاً على أن من يكون متحققاً بحسن حاله عند الله لم يكره الموت[22]. بل يمضي بعد تحبيب الموت إلى المؤمنين إلى تحبيب ملك الموت إليهم، الذي وكل بقبض أرواح الناس حينما أورد قولا لبعض الصوفية الذين قالوا: **«حق ملك الموت أن يحبه المسلم فضل محبة من حيث إنه أحد أسباب تعويضه الحياة السنية الأبدية من حياته الدنية الدنيوية... »**[23]

---

[1] - هو الشاعر إيليا أبو ماضي في قصيدته الطلاسم
[2] - المفردات في غريب القرآن: ص: 138
[3] - نفســـــــــــــه، ص: 139
[4] - نفسه، ص: 139
[5] - نفسه، ص: 476
[6] - نفسه
[7] - نفسه، ص: 477
[8] - نفسه
[9] - الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص: 236
[10] - نفسه، ص: 239
[11] - تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، ص: 200-201
[12] - الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص: 239
[13] - تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، ص: 200
[14] - نفسه، ص: 50
[15] - نفسه ، ص: 88
[16] - نفسه، ص: 201
[17] - نفسه
[18] - نفسه
[19] - نفسه، ص: 201
[20] - نفسه، ص: 133
[21] - رواه البخاري في كتاب الرقاق(41) حديث(6508)/ فتح الباري(357/11)
[22] - تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، ص: 201، وانظر الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص: 239
[23] - الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص: 239